في سورة الشعراء بالانتقام من الكافرين[1]، ويقابل ذلك الرحمة بالمؤمنين في هذه العبارة القرآنية. وفي هذين العنصرين إشعار بعزّة مولاه القادر على الانتقام من الكافرين نصراً لرسوله والراحم للمؤمنين الذين آمنوا به واتبعوه، وفي هذا تسلية وعزاء أيما عزاء.

ثم يلفت النظر كذلك أنه بعد إيراد آية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء] ثماني مرات جاءت التاسعة بصيغة: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء].

فبعد تأكيد العزة والرحمة ثماني مرات تأتي النتيجة الطبيعية وهي التوكل على العزيز الرحيم، فهذه إضاءة من الرعاية العقدية الربانية لخاتم أنبيائه وسيد المربين الأولين منهم والآخرين.

وفي حياة الأنبياء عليهم السلام وقفات تربوية ربانية تتعهدهم بالنصح والإرشاد إلى السلوك القويم مع الله تعالى وتشد من أزرهم، ومن هذه الوقفات:

ما ذكره سبحانه وتعالى من أمر يوسف عليه السلام وقت سجنه وما طلبه منه ساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك فقال له: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ أي: عند الملك، فيحتمل أنه يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكرهما له، ولكن النتيجة كانت: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ قيل: «الضمير عائد على يوسف عليه السلام؛

= السيوطي إمام حافظ، مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف منها: «الإتقان في علوم القرآن»، و«تاريخ الخلفاء»، توفي سنة (٩١١هـ).
انظر: شذرات الذهب، لابن العماد ٨/ ٥١، والأعلام ٣/ ٣٠١.

(١) انظر: تفسير الجلالين ص٣٠٦.

أي: نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله وجنح إلى الاعتصام بمخلوق، فرُوي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله عز وجل في ذلك، وذكر له أنه طول سجنه كان عقوبة على ذلك»[(١)]. فهذا اللبث والمكث في السجن بضع سنين «كان ذلك عتاباً إلٰهياً ليوسف عليه السلام على اشتغاله بعون العباد دون الاستعانة بربه على خلاصه»[(٢)].

وفي ذلك إعداد رباني عقدي لهذا النبي الكريم بالتوجه دائماً إلى الله تعالى والاعتماد عليه في قضاء الحوائج وتفريج الكربات، فلا خاب من توكل عليه. وفي موقف آخر بيّن الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام بأن العبرة بقرابة العقيدة لا بقرابة النسب: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

فقرابة النسب هنا حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت العقيدة نفى الله قرابة النسب، وذلك مع أن الإسلام أعطى لصلة النسب حظاً كبيراً من الرعاية والعناية، والإنسان أيضاً بطبعه مجبول على مراعاتها والقيام بواجباتها، ولكنها مشروطة بقرابة العقيدة[(٣)]، وحول هذا المعنى يقول سيد قطب[(٤)] رحمه الله فيما خلاصته: «إن هذه الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٧٩.
(٢) المحرر الوجيز، ٣/ ٢٤٧، والتحرير والتنوير ١٢/ ٢٧٩.
(٣) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم ص٨١ بتصرف.
(٤) هو: سيد قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري من مواليد قرية «موشا» في أسيوط له كتب كثيرة مطبوعة ومتداولة منها: «التصوير الفني في القرآن»، و«مشاهد القيامة في القرآن»، و«المستقبل لهذا الدين» توفي سنة (١٣٨٧هـ).
انظر: الأعلام ٣/ ١٤٧.

الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم»[١].

وضرب الله أمثلة كثيرة في كتابه العزيز تبين هذا التصور القويم: (إبراهيم مع أبيه، زوجتا نوح ولوط، أصحاب الكهف، امرأة فرعون..) إلخ. ويقول الله تعالى في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]؛ وقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة]، وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة].

فالعقيدة «تمثل أعلى خصائص الإنسان التي تميزه عن عالم البهيمة لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها، وهو العنصر الروحي الذي به صار به هذا المخلوق إنساناً في هذه الصورة»[٢].

العنصر الثاني: تأهيل المربي من الناحية العقلية:

هيأ ﷻ للإنسان قدرات عقلية تمكنه من القيام بوظيفة الاستخلاف التي كلفه الله بها، ومن هذه القدرات العلم والحكمة والفهم، وغيرها من القدرات.

١ ـ **العلم وهو**: «إدراك الشيء بحقيقته، والعلم ضربان: نظري وعملي، **فالنظري**: ما إذا عُلم فقد كمل، نحو العلم بموجودات العالم، **والعملي**: ما لا يتم إلا بأن يُعمل كالعلم بالعبادات»، وقيل العلم: هو

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٨٦.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/١٨٨٨.

الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»[١].

وقد اهتم القرآن بالعلم اهتماماً كبيراً بالغاً، فقد بدأ الوحي بالأمر بالقراءة والاستنارة بالعلم كما قال سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق] وقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم].

«وقد عدّ القرآن العلم عنصراً من عناصر تكوين الإنسان وسراً من أسرار تكريمه، فالنفخة العلوية أسجد الله لآدم ملائكته رفعة وتكريماً»[٢]: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة][٣].

وذلك أن الله ﷻ أراد استخلاف آدم في الأرض ومنحها له، وقد هيأه لها بالعقل والعلم الذي تفوق به على الملائكة: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠].

والله ﷻ بعث رسول الله ﷺ وسلَّحه بالعلم ليكون أهلاً للقيادة الحكيمة والأسوة الحسنة التي يقتدى بها على طول الزمان[٤]: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣]. وقد آتى الله ﷻ يوسف عليه السلام العلم فكان عالِماً

(١) المفردات في غريب القرآن ص٣٤٧، ٤٤٨ بتصرف، والتعريفات ص١٥٥.
(٢) منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص١٣٥.
(٣) في قوله: ﴿عَرَضَهُمۡ﴾؛ أي: المسميات، وفيه تغليب العقلاء. انظر: تفسير الجلالين ص٧.
(٤) انظر: منهج القرآن في التربية ص١٣٦.

ربانياً»[١]: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف]. وهذا العلم هو علم تعبير الرؤى، وهو من علم الله علمه إياه وأحسن إليه به[٢]: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ﴾ [يوسف: ٣٧]. وكذلك يعقوب عليه السلام أعطاه الله علم عظيم عمل به[٣] كما قال ﷻ في كتابه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقد ذكر ﷻ «منَّته على داود وسليمان عليهما السلام بالعلم الواسع الكثير»[٤] بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل].

٢ ـ **الحكمة وهي** «إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات»[٥]، وهذا هو الذي وُصَف به لقمان في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

فالحكمة تعاضد العلم وتقويه وتنيره وتؤهل صاحب العلم ليعرف أين يضع علمه، قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة].

فالحكمة إذاً مقوِّم أساسي في بناء شخصية المربي وإعداده لدوره العظيم والدقيق بآن واحد، وقد أعد الله تعالى أنبياءه عليها ومنهم إبراهيم عليه السلام وآل بيته: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وقد فسرت الحكمة في هذه الآية بأنها: «إتقان العلم والعمل أو الأسرار المودعة في الكتاب، وقيل: هي الفهم في

---

(١) انظر: تفسير السعدي ص٣٩٥.
(٢) انظر: تفسير السعدي ص٣٥٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٤٠.
(٤) تفسير السعدي ص٦٠٢.
(٥) المفردات في غريب القرآن ص١٣٤.

الدين وما يكون من الهدى مما لم ينصّ عليه الكتاب، وقيل: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمته»[١]، وهي من النعم التي أنعم الله بها على نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران].

ويستمر امتنان الله تعالى على أنبيائه ومنهم نبي الله داود عليه السلام بما آتاه الله من الحكمة: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص].

وكذلك «امتنانه سبحانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته[٢]، إذ قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان].

٣ ـ وأما الفهم:

هو تصور المعنى من لفظ المخاطب، وهي هيئةٌ للإنسان بها يتحقق معاني ما يحسن[٣] كما في قوله سبحانه في قصة داود وسليمان عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقيل: إن الفهم «هو العلم بمعاني الكلام عند سماعه، ولذلك يقال: فلان بطيء الفهم[٤]، في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) روح المعاني ٥/ ٨٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٦٨، وتفسير السعدي ٢٤٨.
(٢) تفسير السعدي ص٦٤٨.
(٣) المفردات في غريب القرآن ص٣٨٧، والتعريفات ص١٦٩.
(٤) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٦٩.

وخلاصة هذه القضية أن داود وسليمان عليهما السلام تحاكم إليهما صاحب حرث نفشت فيه غنم القوم الآخرين؛ أي: رعت ليلاً فأكلت ما في أشجاره ورعت زرعه فقضى فيه داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة. وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب بان أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرِّها وصوفها ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود الحرث إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله ترادّا ورجع كل منهما بماله، وهذا من كمال فهمه وفطنته»[(١)]، وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] «بأن جعل الله له من فضل قوة الفهم ما أدرك به ذلك، إما بأن ألقى ذلك في روعه أو بأن أوحى الله إليه وخصَّه به»[(٢)] بأن ألهمه وجهاً آخر في القضاء»[(٣)]، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

وقد ظهر لنا أن جوانب تأهيل المربي من الناحية العقلية هي العلم والحكمة والفهم وهي كلها ضرورية للمربي ليقوم بدوره على الوجه الأكمل اقتداء بأنبياء الله ورسله عليهم السلام.

❐ ثانياً: أساليب تأهيل المربي في ضوء القرآن الكريم:

١ ـ أسلوب الحض والأمر:

«والحض: الحمل على الشيء والإغراء به والحث عليه»[(٤)]، وذلك بأن يؤمر المربي بأن يؤمن أو يتوكّل أو غير ذلك، ومن ذلك الحض من الله على الإيمان بما أوجبه سبحانه وتعالى على عبده من الإيمان بأركانه الستة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

(١) تفسير السعدي ص٥٢٨.
(٢) المفردات في غريب القرآن ص٣٨٨.
(٣) التحرير والتنوير ١١٨/١٧.
(٤) من أساليب التربية في القرآن الكريم ص٨٩.

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

والحض كذلك على آثار هذا الإيمان ومستلزماته: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان].

وعلى هذا الأساس نرى الله ﷻ يحض نبيه الكريم على التوكل على الله والاكتفاء به: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء]، وعلى ذكر الله ﷻ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. والاستغفار: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء].

والحض على التزود بالتقوى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقد يجيء الأمر للمربي بلام الأمر كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ أسلوب المديح:

وهو تعبير عن الرضا بما يصدر من أعمال أو أقوال عن المربّي لتطمئن نفسه ويستمر في منهجه، وقد يكون ذلك بذكر صفاته المحمودة ليتمثلها وهو يقوم في مهمته التربوية أو يحفزه على الاستمرار فيها، وقد يتجاوز المدح المربي إلى من يتوجه إليهم من الآخرين ليزداد المربي علوّاً في نظرهم، وهذا يعدّ تقوية لدور المربي ومؤازرة معنوية له في مهمته.

وقد مدح القرآن أنبياء الله وأغدق عليهم صفات حميدة يستحقونها.

فقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. والأوّاه كثير التضرع والدعاء، والحليم الصابر على الأذى والواسع

الصدر، وهاتان صفتان عظيمتان في المربي إذا أراد النجاح في مهمته.

ومدح الله يعقوب عليه السلام، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، ومدح جملة من الأنبياء بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص]، فهم ذوو قوة في العبادة وبصائر في الدين. ومدح سبحانه داود وسليمان فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا . . .﴾ [النمل: ١٥].

ثم مدح رسول الله ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

ومدح سبحانه نوحاً عليه السلام فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات].

٣ ـ الأسوة الحسنة:

المقصود بالأسوة: «هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره»[(١)]، وقد ضرب لنا سبحانه وتعالى الأمثلة وأعظم النماذج لأنبيائه وما وهبه لهم من أخلاق وعلوم وصفات ودعا إلى الاقتداء بهم.

وقد قدمنا في الفقرة السابقة بعضاً من الصفات التي أغدقها الله على أنبيائه ليكونوا في نظر الناس قدوة يسير المربُّون على هديهم ويترسَّمون خطاهم.

وكذلك يقتدي المربي بالرسول ﷺ، فهو الأسوة الحسنة كما ذكر ذلك سبحانه في كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فهو قدوة فعلية فيما يكون عليه المربي في عقيدته وفي سلوكه وفي علاقته مع الله تعالى وعلاقته بالآخرين.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٢٦.

٤ ـ أسلوب الدعاء:

إن التوجه إلى الله بالدعاء يُشعر الإنسان بالأمن والهدوء والاطمئنان وعندما يدعو لذريته وأهله تنزل البركات عليهم ويشملهم الله برعايته.

فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو ربه بأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم].

ويدعو ربه بأن يجعله مقيم الصلاة وذريته: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم].

وأولوا الألباب هم الذين يسألون الله العفو والمغفرة والنجاة من النار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران].

وكان الجواب على الفور نازلاً من السماء بالإيجاب قائلاً[1]: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

والسيرة النبوية حافلة بأنماط الأدعية التي يجدر بالإنسان الأخذ بها في ساعات اليوم والليلة.

أما مغزى الدعاء للمربي فهو أن يكون دائماً في حال تعلق بالله عز وجل لأن الخير بيديه كما أن قلوب العباد بين يديه يقلبها كيف يشاء، ومن هنا كان الدعاء طاقة أساسية يحتاجها المربي لتكون ملازمة له في أحواله كلّها.

---

(١) انظر: من أساليب التربية في القرآن الكريم ص٣٥٧ ـ ٣٦٠.

❐ ثالثاً: خصائص المربي في ضوء القرآن الكريم:

للمربي خصائص عديدة وسمات متنوعة تسهم إسهاماً مباشراً في نجاحه تربوياً وسوف أتعرض لبعض منها:

١ ـ الرحمة والرفق:

وهي من الخصائص الواجب توافرها في المربي، فالتربية لا تؤتي ثمارها الطيبة ما لم تقترن بخلق الرفق حتى تمتلك القلوب بالرحمة. والناس عادة يحبون ويتأثرون بمن يعطف عليهم ويقبلون على من يشاركهم وجدانياً، ويشعر بمشاعرهم ويحس بأحاسيسهم، ويتمثل مشكلاتهم ويشاركهم في مسراتهم وأحزانهم، ويظهر لهم الرحمة والحنان والشفقة والحب ولين الجانب وحسن المعاملة. والقلوب الأبية الكريمة قلما تستجيب إلى مظاهر القسوة[(١)].

وهي كمال في الطبيعة تجعل المرء يشعر بآلام الآخرين ويسعى للتخفيف منها أو إزالتها، فيقف عند أخطائهم ويدعو لهم بالهدى والصلاح، وهي صفة من صفات المولى ﷻ، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرف معه شعاع للرحمة الغامرة[(٢)]، فقال سبحانه في مستهل سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة]، وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»[(٣)].

---

(١) انظر: من أسس التربية، عمر محمد التومي الشيباني ص١٤٥ بتصرف.
(٢) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي ص١٨٧.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، برقم حديث (٧٤٧٦).

وقد نوه الله تعالى بهذه الخاصية في رسوله حيث جعله من أنفُسِ المؤمنين يرحمهم ويبتئس لما يقعون فيه من المعاصي والمشاقّ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وورد في القرآن تفصيل لمبعث هذه الخاصيّة وأسباب حدوثها.. إنها رقة في القلب تجعله محبوباً مقبولاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وتظهر هذه الخاصية في الرسول ﷺ وتتأكد عند تعامله مع الصغار والجهّال والمبتدئين والأيتام والنساء والشيوخ ونحوهم، وذلك لشدة حاجتهم إلى الرحمة والشفقة وأيضاً تقديراً لحالهم، ومن أمثلة ذلك رحمة الرسول ﷺ بالصبيان، فقد كان يعطف عليهم ويداعبهم وربما تجوَّز في الصلاة وهو يريد الإطالة مراعاة لحالهم وحال أمهاتهم[(١)].

ومن التوجيهات المباشرة والعملية ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «أبصر الأقرع بن حابس[(٢)] النبي ﷺ وهو يقبِّل الحسن[(٣)] والحسين[(٤)] فقال: «إن لي من الولد عشرة ما قبّلت أحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[(٥)]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم مَن في السماء**»[(٦)].

«وعندما يكون المربي قاسي القلب مسلوب الشفقة على الخلق تفسد حاله ولا يستقيم له أمر، بل يكون شقياً كما قال ﷺ: «**لا تنزع**

---

(١) انظر: علم النفس الدعوي ص٢٩٩.
(٢) سبقت الترجمة له.
(٣) سبقت الترجمة له.
(٤) سبقت الترجمة له.
(٥) سبق تخريج الحديث.
(٦) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم الحديث (٤٩٤١). وقال الألباني: حديث صحيح في سنن أبي داود ص٧٤٠.

الرحمة إلا من شقيّ»[(١)]. فيا له من تحذير لأولئك النفر من أصحاب القلوب القاسية.

وبهذا يتبين ما لخاصية الرحمة من أهمية كبرى في إحداث التفاعل التربوي فهي أساس لا بد منه لبناء العلاقات مع الآخرين وإعطاء الانطباع الصادق عن المربي وحرصه ومتابعته وعنايته لشأن المربّى ومن ثم إحداث الأثر التربوي المناسب»[(٢)].

ومن مظاهر الرحمة في المربي:

١ ـ التلطف بالابتسامة والانبساط في الحديث في حدود المعقول والمقبول.

٢ ـ عدم استخدام الضرب والقسوة في كل الأحوال حتى لا يتعود الناشئ على ذلك فيكون تأثير العقاب غير مجد مستقبلاً.

٣ ـ قبول العذر والعفو عن المسيء ممن يقدمه، حتى لا يؤدّي عدم قبوله إلى استخدام أساليب غير مرغوب فيها من تصادم أو تمرّد.

٤ ـ الرحمة عند استخدام العقوبات وذلك باختيار أرفق العقوبات مما يفي بالغرض ولا يترك ردود أفعال غير مستحبّة[(٣)]، وباختصار أقول ينبغي استخدام الرحمة بالناشئ، فإن أحس بها الناشئ أطاع، وإن شعر بخلافها عصى.

٢ ـ الحلم:

يقول صاحب القاموس المحيط: «الحِلم ـ بالكسر ـ الأناة والعقل ـ

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم الحديث (٤٩٤٢). وقال الألباني في سنن أبي داود ص٧٤٠: حديث صحيح.

(٢) علم النفس الدعوي ص٢٩٩ ـ ٣٠١ بتصرف.

(٣) انظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بدر الدين بن جماعة ص٤٩ ـ ٥٢.

جمعه أحلام وحلوم، ومنه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور: ٣٢]، وهو حليم، جمعه: حلماءُ وأحلام، وقد حلُم ـ بالضم ـ حِلْماً وتحلَّم: تكلّفه»[(١)]؛ أي: تكلَّف الحِلْم.

والحلم ـ كما يذكر الأصفهاني[(٢)] ـ هو: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[(٣)]، وقيل: «هو الطمأنينة عند سَورة الغضب، وقيل: تأخير مكافأة الظالم»[(٤)]. وعلى هذا التفسير الأخير جاء في الجلالين الحلم بالصبر على الأذى[(٥)].

وقد ضرب الله ﷻ أروع الأمثلة فيمن خصه بهذه الخاصية من أنبيائه الكرام، ومنهم سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد وصفه بالحِلم «فهو صبور على الأذى صفوح عن الجناية وعن الذنوب»[(٦)].

فقال عنه ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود].

فهو ذو رحمة بالخلق وصفوح عما يصدر منهم إليه من الزلّات، لا يستفزه جهل الجاهلين ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه يقول له: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، وهو يقول له: ﴿. . .سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧].

وقد رجع إبراهيم عليه السلام عن مسألة الاستغفار هذه لكفر أبيه، ولكن تبقى هذه الصورة الرائعة عند مقابلة المربي لمن يربيه بالوداعة والمعروف

---

(١) انظر: القاموس المحيط، مادة: (ح ل م) ٤/ ١٠٠.
(٢) سبقت الترجمة له.
(٣) المفردات في غريب القرآن ص١٣٦، والتعريفات ص٩٢.
(٤) روح المعاني ١١/ ٥١، والجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٥٢.
(٥) انظر: تفسير الجلالين ص١٦٧.
(٦) روح المعاني ١١/ ٥١، والجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٥٢، وتفسير الجلالين ص١٦٧.

ورحابة الصدر والصبر على الأذى حتى وإن كانت كلمة واحدة فقابلها بالحلم.

وجاء وصف سيدنا إسماعيل في القرآن الكريم بالحلم، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات]، وقد بلغ سيدنا محمد ﷺ قمة هذا الخلق وذروة هذا الأدب الرفيع، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك[١] قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذه شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء»[٢]، إنه حلم عظيم وأدب جم، فليتعظ به المتجرؤون عليه ﷺ بالقول ومستنكر الأفعال.

ومن الأمور المرتبطة بالحلم أيضاً العفو، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

وثواب العفو والصفح جاء في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله في موضع آخر: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران].

وحتى يتحقق الحلم حث الرسول ﷺ على عدم الغضب ونهى عنه فقيل: إن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني! قال: «**لا تغضب**»، فردد مراراً فقال له: «**لا تغضب**»[٣].

---

(١) سبقت الترجمة له.
(٢) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشَّملة، رقم الحديث (٥٨٠٩).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث (٦١١٦).

فالحلم والرفق في تربية الأبناء مطلب ضروري لا بد أن يسلكه المربي في تعامله معهم، ولكن إذا اقتضت مصلحة معينة معاقبة الأبناء فعليه ألا يتأخر حتى يصلح حالهم وتستقيم أخلاقهم.

٣ ـ الصبر:

أصل الصبر في اللغة: المنع والحبس(١).

وهو في الاصطلاح: «هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله»(٢).

والصبر سمة من سمات الأقوياء، لأن أعباء الحياة ومتاعبها ومشكلاتها التي لا تحصى لا يطيق حملها الضعفاء، وأصحاب البنية الهزيلة، فالحياة لا ينهض برسالتها الكبرى ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال أقوياء وأبطال صابرون، لذا كان نصيب القادة والعلماء والدعاة من العناء والبلاء بقدر ما تحملوا من أعباء ومسؤوليات(٣). «وتحلي المربي بالصبر يعطيه قدرة على تحمل المشاق البدنية والنفسية والعقلية والاجتماعية ويمنحه جَلَداً على معايشة المكاره والمشاكل ومكابدتها، وثقةً في النفس وقوة في الإدارة، واطمئناناً في القلب وراحة في البال، وأملاً في الانتصار على المشاكل والعقبات»(٤).

ويجب أن يتحلى المربي بالصبر وعدم الاستعجال في أثناء تربيته أو تعليمه لأبنائه، وفي إصلاحهم وتقويم ما يحصل لهم من اعوجاج، مع الاستمرار في نصحهم، ولا يستعجل المربي ظهور النتائج وتحقيق المراد؛ فيتسرب إلى نفسه اليأس والشعور بالفشل، وذلك لأن الصبر

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية ص٢٨ بتصرف.
(٢) التعريفات، للجرجاني ص١٣١.
(٣) انظر: خلق المسلم للغزالي ص١١٩.
(٤) من أسس التربية، عمر التومي الشيباني ص١٣٨ ـ ١٣٩.

خلق من شأنه أن لمرتبه القيادة العامة والإمامة الدينية كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]، فدل هذا النص القرآني على أن الصبر قد أهَّل أصحابه لمرتبة الإمامة الدينية؛ لأنهم كانوا مهتدين بكتاب الله وهديه، ولأنه جعل الله فيهم أئمة يهدون بأمره.

وقوله تعالى في قصة يوسف وإخوته: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

وهكذا نجد أن يوسف عليه السلام بلغ هذه المرتبة من القيادة العامة وذلك لما كان عليه من التقوى والصبر، فكافأه الله ببلوغ هذه المرتبة[1].

ومن روائع الأمثلة على الصبر:

ـ صبر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما حكى ذلك سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات].

ـ وكذلك صبر أيوب عليه السلام، فقد قدم مثالاً يقتدى به من أمثلة الصبر على المصائب فحاز المكانة التي أعدها الله لعباده الصالحين: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

وتعظم هذه الخاصية وتشحذ همم المربين للوصول إليها عند معرفة الجزاء الرباني لهؤلاء الصابرين يوم القيامة: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]، ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان].

٤ ـ العدل:

العدل هو: «ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور، والعدل أيضاً هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[(١)].

وفي الاصطلاح: «هو عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط»[(٢)].

وفي كثير من الأحيان يمارس المربي التربية في جو جماعي ويتعامل مع أفراد في مستوى واحد أو بيت واحد فيكون سلوك المربي تحت نظر المتربين، فإذا ميز بين فرد وفرد دون سبب واضح، قلّ التفاعل وفُقد الانسجام من المتربين، ومعلوم أن العدل هو الحد الأدنى الذي يطلبه المتربي في التعامل مع حقوقه[(٣)].

وهو الحق الذي أمر الله به عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل].

وقال سبحانه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٣٢٩، ولسان العرب ١٠/ ٦١.
(٢) التعريفات ص١٤٧.
(٣) انظر: علم النفس الدعوي ص٢٩٣، ٢٩٤.

فالعدل واجب ومشروع وهو الحد الأدنى الذي يتم به صفاء النفوس وإحقاق الحق، والإحسان فوق ذلك وهو مندوب مطلوب[١].

٥ ـ الأمانة:

والمراد بها هنا «أن يكون المربي صادقاً وأميناً في تعامله مع تلاميذه وأن يبني الثقة في نفوسهم، فالأمانة ضرورية لبناء العلاقات، ولإحداث التفاعل المطلوب وذلك لأسباب عديدة:

منها: أن سلوكيات التفاعل تشمل تبادل الأسرار والاطلاع على أحوال المتربي الشخصية والاجتماعية والنفسية، مما لا يتاح إلا لصفوة من المقربين، وليحقق المربي ذلك المستوى من العلاقة لا بد أن يكون موثوقاً أميناً، وأن يظهر ذلك في سلوكه وتعامله.

أما إذا كان المربي متقلباً لا يوثق به ناقلاً للأخبار، لا يحفظ سراً ولا يرعى عهداً، فإنه لا يمكن أن يستأمن، ولا أن يفضى إليه بالدقائق، ولا أن يطلع على القضايا الخطرة والخاصة، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يكون متفاعلاً مندمجاً حق الاندماج مع المتربي، بل ربما كان أقرب إلى السطحية والكذب في معاملته وإلى تعدد الوجوه في مسالكه بحيث لا يعتمد عليه ولا تؤمن بوائقه.

ومنها: أن إبداء المشورة والنصح للمتربي يعتمد اعتماداً كبيراً على أمانة المربي وصدقة وعلى مدى الثقة به»[٢].

والأمانة من صفات الرسل المبلغين، فلولا أنهم كانوا أمناء لما استأمنهم على خلقه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٣، ٥٠٤.
(٢) علم النفس الدعوي ص٢٩٤ ـ ٢٩٥.

وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

وفي سورة الشعراء يقص الله على نبيه أحوال بعض رسله ﷻ وما حصل لهم من قومهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وكل منهم يقول لقومه: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

والأمانة ليست مقتصرة على حفظ الأموال والودائع، وإنما تشمل أمانة نقل الأخبار والأحاديث، ولهذا نجد أن الأنبياء عليهم السلام يشيرون إلى ذلك حتى يكون ذلك دافعاً لتصديقهم والإيمان بما يدعون إليه[١].

«والرسول ﷺ أيضاً اشتهر بخُلق الأمانة من قبل بعثته، فكان يدعى الأمين، وكأنه لأهمية هذا الخلق في الدعوة والتربية عُرف به مبكراً ليكون أساساً وممهداً للدخول مع الناس والتأثير فيهم. وقد أحب الناس الرسول ﷺ لذلك فأقبلوا عليه وتأثروا به، وبهذه الصفة والصفات الأخرى ملك قلوب الناس وصار مرجعاً لاستشاراتهم ومستودعاً لأسرارهم وأماناتهم»[٢].

ويبقى أن نقول: إذا لم يكن المربي أميناً صادقاً في تعامله فكيف يأمنه المتربي على التأثير في بناء شخصيته وعقيدته وترتيب حياته... إننا عند ذلك كطالب الماء في الصحراء المجدبة!!

❐ رابعاً: صفات المربي في ضوء القرآن:

للمربي الناجح صفات كلما تلبّس فيها زاد نجاحه في تربية ولده بعد توفيق الله، وقد يكون المربي أباً أو أماً أو أخاً أو أختاً أو عماً أو جداً أو خالاً أو معلماً أو غير ذلك، وصفات المربي عديدة **منها**:

---

(١) انظر: إعداد المعلم من منظور التربية الإسلامية ص٢١٥.

(٢) علم النفس الدعوي ص٢٩٥.

الصفات الروحية:

١ ـ التقوى:

من الصفات التي يجب أن يتصف بها المربي المسلم في علاقته مع ربه وخالقه هي تقوى الله وما يرتبط بها من طهارة القلب وصفاء الضمير وإخلاص الطاعة وثبات العبادة.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]. وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه[(١)]: «وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»[(٢)]، فهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها فكما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه»[(٣)].

ويقول سيد قطب[(٤)] رحمه الله في تفسير هذه الآية: «اتقوا الله ـ كما يحق له أن يتقى وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها، وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق وجدّت له أشواق، وكلما اقترب بتقواه من الله تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام»[(٥)].

وقد وصف الله تعالى المتقين بخمسة أوصاف بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

---

(١) سبقت الترجمة له.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٧/١٠٦، رقم (٣٤٥٥٣).
(٣) تفسير السعدي ص١٤١ ـ ١٤٢.
(٤) سبقت الترجمة له.
(٥) في ظلال القرآن ١/٤٣٦.

يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة]. وقد جعل الله تعالى لمن يتقيه الجزاء له في الدنيا والآخرة: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وقد سئل الرسول ﷺ: ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»(١).

ومما لا شك فيه أن المربي إذا لم يكن متمسكاً بالتقوى ومطبقاً لها في سلوكه وتعامله، فإن الولد ينشأ على الانحراف فلا يقف عند زاجر ولا يخشى من مراقبة الله به، لأنه فقد الإشراف والتوجيه من القدوة والمسؤول الأول عن التربية وهو المربي(٢).

٢ ـ الإخلاص:

وقد عرّف الإمام ابن القيم(٣) الإخلاص بأنه «إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، وقيل: هو استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، وقيل: هو تصفية العمل من كل شوب»(٤).

«فالإخلاص في القول والعمل هو من أسس الإيمان ومن مقتضيات الإسلام، لا يقبل الله العمل إلا بما جاء الأمر به جزماً وتأكيداً في كتاب الله ﷻ وعلى لسان نبينا عليه الصلاة والسلام»(٥)، قال تعالى:

---

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث (٢٠٠٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح غريب، وقال الألباني: حديث صحيح الإسناد في سنن الترمذي ص٤٥٤.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله علوان ٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

(٣) سبقت الترجمة له.

(٤) مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» ٢/ ٩١ بتصرف.

(٥) تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله علوان ٢/ ٥٧٨.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة].

وقوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

«فالمخلص هو من قصد جميع عباداته الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزلفى لديه»[(١)]، والعمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وكان لوجه الله تعالى كما قال ﷺ: «**إن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجه الله**»[(٢)].

فالإخلاص مطلوب من الإنسان المسلم في كل عمل يقوم به، ويروى عن بعض العلماء قولهم: «طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى»[(٣)].

فالمربي بإخلاصه يتحقق له القَبول عند الله وبين أولاده وتلامذته.

الصفات العقلية للمربي في ضوء القرآن الكريم:

ومن هذه الصفات ما يلي:

١ ـ العلم:

«عدة المربي في عملية التربية فينبغي أن يكون المربي عالماً في أصول التربية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية وأن يكون محيطاً بأمور الحلال والحرام، وأن يكون على دراية تامة بمبادئ الأخلاق..؛ لأن العلم بهذا كله يجعل من المربي عالماً حكيماً يضع الأشياء في موضعها

(١) تفسير السعدي ص٩٣٢ بتصرف.
(٢) السنن الكبرى، للنسائي، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر ٣/ ١٨، رقم الحديث (٤٣٤٨).
(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٤٣.

ويربي الولد على أصولها ومقتضاها ويسير به في طريق الإصلاح والتربية على أسس متينة من تعاليم القرآن وهدى الرسول الكريم ﷺ.

أما إذا كان المربي جاهلاً... بالشرع فإن الولد يتعقد نفسياً وينحرف عقلياً ويضعف اجتماعياً»[(١)]، «وينشأ أولاده على البدع والخرافات وقد يصل الأمر إلى الشرك الأكبر عياذاً بالله.

والمتأمل في أحوال الناس يجد أن جلّ الأخطاء العقدية والتعبدية إنما ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم.

والمربي الجاهل بالشرع يحول بين أبنائه وبين الحق بجهله، وقد يعاديه لمخالفته إياه كمن يكره لولده كثرة النوافل أو ترك المعاصي، أو الأمر بالمعروف، أو طلب العلم أو غير ذلك[(٢)].

من أجل ذلك هذا كان اهتمام الشريعة الإسلامية بالحض على العلم عظيماً، والآيات التي تحض على العلم كثيرة في كتابه الكريم، فهي أكبر من أن تستقصى وأعظم من أن تحصى، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، فقد فضَّلهم سبحانه على غيرهم من العالمين، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١].

«وحسب المربي تشجيعاً على طلب العلم أن الله تبارك وتعالى رفع من شأن العلماء فخصَّهم بخشيته وتقواه، وجعل ذلك الشرف مقصوراً عليهم ومن سائر الناس»[(٣)] فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ﴾

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله علوان ٢/ ٥٨٠ بتصرف.
(٢) انظر: كيف تربي ولدك ص١٢.
(٣) شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسُّنَّة ص٤٤.

[فاطر: ٢٨]، فما يخشى الله حق خشيته إلا الذين استنار فكرهم وتجلت لهم قدرة الله وعظمته.

وطلب العلم مستمر ولا بد للمربي أن يزداد كل يوم علماً، عملاً بقول تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ويجدر بالمربي أن يكون دائم الاطلاع لديه قدر من الثقافة الواسعة فمن الآيات التي تحث على الطلب المستمر للعلم والثقافة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

لأنه بقدر ثقافته وعلمه يكون له النجاح في التوجيه والإرشاد لأبنائه أو طلابه، وبقدر علمه يستطيع التعرف على ما في عصره مثلاً من مذاهب هدامة وتيارات فكرية منحرفة، فيعرف ما يستتر بين الشباب والمراهقين من المخالفات الشرعية التي تفد إلينا فيكون أقدر على مواجهتها(١).

٢ ـ الرُّشْد:

قيل: الرُّشْد والرَّشَد والرشاد: نقيض الغي. رشَدَ الإنسان، بالفتح، يرشد رُشداً بالضم، وهو نقيض الضلال، إذا أصاب وجه الأمر والطريق(٢).

وهو من صفات خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام وصفه تعالى به: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء].

أي: الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار، وهو الرشد الكامل؛ أي: الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلٰهية، وقيل: الحكمة، وقيل: التوفيق للخير صغيراً بأن وفقّ للنظر والاستدلال(٣).

---

(١) انظر: كيف تربي ولداً صالحاً ص٤٤.
(٢) لسان العرب (ر ش د) ٦/ ١٥٧، وانظر: المفردات في غريب القرآن ص٢٠٢.
(٣) روح المعاني ١٧/ ٨٦ ـ ٨٧، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٥٩.

وقال ابن عاشور[١] في تفسيره: «هو الهدى وسداد الرأي والرأي الحق»[٢].

ولعل هذا أوضح تفسير للرشد، ومن اتصف به من المربين فقد تحقق له الفلاح في الدنيا والآخرة، كيف لا وقد وصف ﷻ به أحد أنبيائه.

٣ ـ الحكمة:

صفة من الصفات العقلية للمربي وقد تناولناها من قبل في هذا المبحث بوصفها عنصراً من عناصر تأهيل المربي على نحو يغني عن إعادة ذكره هنا، ويكفي هنا القول إن الحكمة إذا كانت في المربي عرف كيف يستفيد من علمه في تربية النشء بأن يضع كل معلومة في مكانها الصحيح وفي الوقت المناسب مستفيداً من كل فرصة للولوج إلى نفس الناشئ، شادّاً في وقت الشدّ ومرخياً في وقت الإرخاء، وبذلك تُجنى ثمرات التربية الكاملة واليانعة بإذن الله.

وبقي أمامنا سؤال يقول: كيف يتصف المربي بالحكمة؟

إنه سؤال كبير، لأن الحكمة ليست في دكان لتشترى منه، ولكنها هبة من الله تعالى لبعض عباده، وهذا ما يجعلنا نرى داعية يصل إلى قمة النجاح وآخر لا يكاد يغادر علمه موضعه الذي هو فيه، ولكن ينصح المربي أن يستمر في الطلب من ربّه أن يؤتيه الحكمة وأن يكثر من مراقبة الله ولزوم طاعته، فإن من ينابيع الحكمة تقوى الله والإخلاص له في العبادة.

---

(١) هو: محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، ولد بتونس وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة من أشهرها: «مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والتحرير والتنوير» مختصر القرآن، توفي بتونس سنة (١٣٩٣هـ).
انظر: الأعلام ٦/ ١٧٤.

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٢٨.

المبحث الثالث
كمال الإحاطة الربانية للأنبياء في طفولتهم وفوائده العظيمة للناشئة في ضوء القرآن الكريم

❐ تمهيد:

«إن في رحاب القرآن الكريم وقفات جميلة مع الأنبياء الكرام في مرحلة من مراحل حياتهم هي مرحلة الطفولة.

والحديث عن طفولة الأنبياء حديث يرتبط به الإحاطة الربانية ارتباطاً مباشراً، فنجد في كل موقف حكم وأحكام وتعليم وإفهام، عرضها ﷻ في قصص فيها العبرة لأولي الألباب» ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، قصص كشفت عن قدرة إلٰهية أحاطت بهؤلاء الأنبياء في طفولتهم وكانت سياجاً حصيناً من كل ردي ومن كل خطب قد يصيبهم.

وفي كل قصة وكل وقفة ابتلاء من الله لهذا النبي، فيكشف عن مدى إيمانه وتعلقه بالله تعالى إما: في ولد يطمح له ويحن إليه ويوحى إليه ذبحه بيده، أو بإلقائه في اليّم وعزوفه عن المراضع حتى عاد إلى الحضن الحاني، أو نبي غاب سنين وتقلَّبت به الأحوال حتى وصل إلى غاية عزه ومجده، أو نبي يتيم في صغره سخَّر الله له من يعوضه عن يتمه ويقيه الشعور بالحرمان وفقد الأحبة، قصص ووقفات هي الزاد للآباء وفيها العبرة للأبناء.

والذي يهمنا من هذه القصص الجانب المتعلق بالرعاية الإلٰهية للنبي في مرحلة طفولته ونشأته لعلنا نقف على خطوط بارزة لمعالم التربية

الإلـٰهية للناشئة. وقد تمّت من الرب الحكيم الخبير ـ جلا وعلا ـ لنماذج بشرية فريدة هم أنبياء الله تعالى ورسوله.

❐ أولاً: الإحاطة الربانية لنبي الله إسماعيل عليه السلام في طفولته:

نحاول في هذا الجانب أن نتمثل الإحاطة الربانية التي أحاط الله بها إسماعيل عليه السلام بينما كان أبو إبراهيم عليه السلام في موقف المربي لنكشف عن طبيعة العلاقة بين المربى والمتربي على مستوى نماذج رائعة في تاريخ البشرية وهي النماذج النبوية التي حظيت بعناية ورعاية خاصة. ثم نحاول أن نستخلص الفوائد التربوية من قصة إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليه السلام.

وقد كان هنالك موقفان ينبغي النظر العميق فيهما، أولهما بدأ حين ترك إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وولدها إسماعيل وهو طفل رضيع بواد غير ذي زرع امتثالاً لأمر الله، والقصة معروفة لا حاجة لسردها تفصيلاً[1].

لكننا نقف عند الآيات التي تحدثت عن ذلك بشيء من التحليل والكشف، فقد أودع إبراهيم زوجه وولده ببطن مكة وهو يقول داعياً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم].

وقد سبق لإبراهيم أن دعا ربه بذرية صالحة فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات].

وقد يتبادر إلى المرء أن يقول:

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤]: النَّسلان في المشي، رقم الحديث (٣٣٦٤).

أي: صلاح هذا أن يترك المرء زوجه وولده في أرض لا ماء فيها ولا شجر؟ لكنه الابتلاء الأول لإبراهيم عليه السلام في ولده، وهو ابتلاء عظيم، ابتلاء الأنبياء عليهم السلام بعد أن تتفجّر ماء زمزم وتتدفق إلى هذه اللحظة.

ومن الامتحان الرباني الأول وما صاحبه من النص القرآني **يمكن أن نستخلص ما يلي:**

١ ـ أن المربي لا ينبغي أن يتوقف عن الدعاء للولد، ومن هنا جاء ما حكاه القرآن الكريم من قوله تعالى على لسان إبراهيم الأب: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم].

٢ ـ أن يرتبط دعاء المربي للمتربي بنوعين من المصالح... مصالح عليا ومصالح دنيا ولا يحسن التوقف عند المصلحة الدنيوية القريبة عند الدعاء، فجاء قوله عز وجل: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ لتؤكد هذه الحقيقة، مع أن الدعاء اشتمل على مصالح قريبة كالاستئناس بالناس ومحبتهم والأكل من الثمرات... ولهذا لم يجئ قول إبراهيم عليه السلام فارزقهم من الثمرات لعلهم يأكلون!! بل جاء: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

وإن هذا الربط في الدعاء أدعى إلى الاستجابة الربانية بدليل أن الله استجاب دعوة إبراهيم. وهذا درس عظيم لكل مربّ إذا دعا لولده فليذكر في دعائه ما يحقق عبودية المتربّي، فهذا أحرى باستجابة الدعاء، لأن الغاية من تحقق حاجات المتربي الدنيوية تحقيق الهدف الأسمى وهو العبودية الصحيحة.

٣ ـ أن يبذل المربي (الأب) ما وسعه الجهد لتقديم المعونة للزوج والولد في حدود الاستطاعة ثم التوكّل. فقد ورد في نص حديث البخاري ما يفيد أن إبراهيم عليه السلام متوكلاً على الله[١] هذا مع الاعتقاد بأن الله لن يضيع أهله فهو الذي أمر بتركهم في مكة.

٤ ـ أن تسعى الأم المربية إلى ما فيه مصلحة ولدها، وهذا ما جعلها تهرول بين الصفا والمروة لعلها تنظر فتجد من يغيثها على إطعام ولدها ومدهما بالماء مع علمها بأن الله هو الذي أمر بهذه السكنى.

وهذا مفهوم من قولها لإبراهيم عليه السلام: «آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم فقالت: إذن لا يضيعنا»[٢].

أما الامتحان الرباني الثاني لإبراهيم فهو أمره بذبح ولده إسماعيل حتى إذا قال إسماعيل: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢] تلّه للجبين... ثم جاء الملك يحمل الكبش ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات]، وفي هذا ابتلاء عظيم لإبراهيم ولولده إسماعيل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات].

ونخلصُ من هذا الامتحان **بنتائج ذات دلالات منها**:

١ ـ إن من يطَّلع على قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل يشعر أن علاقة ما كانت تربط الأب بابنه، هي فوق الحياة اليومية للأب والابن، إنها علاقة مسلَّم بها، وهي أنهما كانا يشعران باطمئنان دون أي شك أنهما عبدان مطيعان لله، وأن طاعته هي فوق كل اعتبار، ولهذا لم نلحظ جدلاً قام بين الأب وابنه في مسألة التنفيذ للأمر الرباني... كما لم تعترض الأم على ذلك، وهذا ما ينبغي أن يكون بين كل مربٍّ ومن يربّيه ألا وهو

(١) سبق تخريج الحديث من قريب وهو في صحيح البخاري برقم (٣٣٦٤).
(٢) الحديث نفسه.

التسليم بأن الأمر الإلٰهي فوق كل الاعتبارات، وأنه لا ينبغي التضحية بأسس العبودية لله من أجل أغراض دنيوية مهما كانت المبررات إلّا أن تكون مما يجيزه الشرع في ظرف من ظروف الحياة كقصر الصلاة والإفطار للمسافر. ومما يثلج الصدر أن كثيراً من المربين ومن يربونهم في عصرنا يشيع فيهم مقولة (هذا حرام وهذا حلال) إن شيوع هذا المفهوم في بيئاتنا مؤشر طيب، وهو جعل المقياس في كل جزئيات حياتنا موافقته أو مخالفته لرأي الشارع ﷻ فيه تحليلاً وتحريماً.

٢ ـ أن على المربّي متابعة من يربّي وإن شبّ وكبر وتزوّج، وهذا ما عرفناه من حديث البخاري حين أمر إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل بتطليق زوجه التي لاحظ إبراهيم عليه السلام فيها كفران النعمة[١]، لكن ينبغي أن نذكر هنا أن هذا لا يكون مفتاحاً صالحاً لكل أب يأمر ولده بتطليق زوجه في أيامنا لأنه ليس جميع الآباء على مستوى واحد من الورع والتقوى وتبصُّر المصلحة.

٣ ـ ينبغي أن يتعاون المربي والمُربّى على طاعة الله في مشروعات إيمانية مشتركة، الغرض منها طاعة الله وخدمة الدين، وهذه نقطة لا علاقة لها بمحض بر الوالدين فهو أمر ثابت في الشريعة، ولكن المقصود به أن يطرح المربي مشروعاً على المربّى فيه خدمة للدين، وأن يتعاون الطرفان لتحقيقه، وهذا ما رأيناه في حديث البخاري[٢] أيضاً من تعاون إبراهيم مع إسماعيل عليهما السلام في رفع قواعد البيت، فقد كانا يتعاونان ويرددان معاً الدعاء: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

---

(١) حديث البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿يَزِفُّونَ﴾، برقم (٣٣٦٤).
(٢) حديث البخاري سبق تخريجه برقم (٣٣٦٤).

إن مجرّد التفكير بالوالد والولد يقولان بصوت واحد: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] وهما يقومان بعمل عظيم يباركه الرحمٰن في خدمة الإسلام، يجعلنا نمتلئ إحساساً بالروعة والخشوع في آن واحد.

وباختصار نقول: إن تربية الناشئة على صنع المعروف هو الذي ينبغي أن يكون في مدارسنا وبيوتنا، وهو الذي ينبغي أن تربى عليه الناشئة المسلمة، فإذا كانت التربية قد أقرت مبدأ التعلم التعاوني فلنقر كذلك مبدأ البرّ التعاوني، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

٤ ـ مع أن أمر ذبح الوالد للولد ليس بالسهل ولا باليسير، فقد سمعنا من إسماعيل عليه السلام عبارات فيها كمال الأدب مع الأب فقد قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ولفظ (يا أبت) عبارة فيها تحبّب وأدب مع الأب كما أن (افعل ما تؤمر) فيها تقدير عالٍ من الابن لمحنة الأب في هذا الابتلاء الصعب، فلم يكن الابن مهوّلاً للأمر بأن لم يتلفظ لسانه بعبارة اذبحني[(١)]، لأنه يعلم أن هذا سيكون ثقيلاً جداً على الأب، بل قال ما يخفف على الأب المهمة وهو إشعاره أنه يعلم أن هذا بأمر من الله وأنه لا شأن لأبيه في المسألة.

ثم إن قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢][(٢)].

«فيه رحمة بذلك الأب وتهدأة له بألا يجزع ولا يهلع. بل يكون مثابراً، وفي ذلك تخفيف من عبء ما عسى أن يعرض لأبيه من الحزن لكونه يعامل ولده بما يكره»[(٣)].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٢.
(٢) الآية في الحاشية السابقة، وانظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٥.
(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٢.

❐ ثانياً: الإحاطة الربانية لنبي الله يوسف عليه السلام في طفولته:

وردت قصة يوسف عليه السلام في سورة سُميت باسمه وجاء فيها: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

وقد وجهت العناية الإلٰهية ليوسف عليه السلام إحاطة ورعاية عن طريقين: الأولى عن طريق تهيئة البيئة التربوية الأبوية الفاعلة، والثانية: عن طريق الرعاية السماوية.

١ ـ البيئة التربوية الأبوية ليوسف عليه السلام:

ونلمح هذا من قوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، فيوسف عليه السلام كان يتنفس بيئة التوحيد والطاعة من قبل أن يبشر بالنبوة.

كما نلمح حرص يعقوب عليه السلام على منع السبب المؤدي إلى الحسد وهو النصيحة بعدم قصّ الرؤيا على إخوة يوسف، وقد تكون فائدة من ذلك للمربين بألا يوجدوا بيئة الحسد بمنع أسباب الغيرة، وباتباع العدل في المعاملة وعدم التمييز بين الناشئة.

ومما يستفاد من الآيات كذلك ربط الكثير من الشرور المتوقعة بالشيطان لأنه عدو لابن آدم وسبب لكثير من مصائب البشر وانحرافهم.

٢ ـ الرعاية الربانية:

وبدأت بالمنام الذي رآه يوسف عليه السلام وفيه دلالات تمهّد له أن يتوقع أموراً عظيمة في مستقبل أيامه، وقوى هذه الفكرة تفسير يعقوب عليه السلام لمنامه.

ثم استمرت تلك الرعاية بأن هدى الله أحد الإخوة لاختيار رمي يوسف في البئر بعد أن أزمع الإخوة على قتله، ثم بأن يوحي الله إلى يوسف وهو في البئر وحياً يقول: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، كانت الرعاية الإلٰهية مع يوسف غير منقطعة، فبعد أن شعر يوسف بالاطمئنان في البئر وعدم الخوف سخر له من يلتقطه وشراء عزيز مصر له فأكرم مثواه. ثم رؤية يوسف لبرهان ربّه عندما دفع الشيطان بامرأة العزيز نحوه قائلة (هيت لك)، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف].

أما ابتلاء يوسف بالسجن فهو من السنن الكونية أيضاً لأن الإنسان معرَّض للامتحان والابتلاء ليصبر فينال درجات عالية. ثم ليكون ما كان من أمر الوزارة التي تولاها يوسف وتتمة القصة المعروفة التي لا يتسع المجال لذكرها.

ولعلّ مما يستفاد من هذه الأحداث تربوياً أن المربي ينبغي أن يكون ما أمكن قريباً من ظروف من يربي، فإن أصابته ضراء وقف إلى جانبه ونفَّس عنه، ولكن بالطريقة البشرية ـ بطبيعة الحال ـ وأن يعلم الناشئ شكر المعروف بالعمل لا باللسان وحده كما كان من يوسف عليه السلام حينما أبى أن يخون مولاه عزيز مصر في أهله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ﴾ [يوسف: ٢٣]، وأن يتعود الناشئ الصبر على الابتلاء حتى يأتي اليسر والخير: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح].

❐ ثالثاً: الإحاطة الربانية لنبي الله موسى عليه السلام في طفولته:

موسى بن عمران أحد أنبياء الله عز وجل الذين صوَّر القرآن الكريم طفولتهم بشكل واضح، وذكر كثيراً من جوانب حياته الطفوليه وما

خالطها من ألطاف وعنايات ودروس وفوائد وعبر(١).

❐ أولاً: الآيات:

وقصة موسى عليه السلام مليئة بالأحداث، ويكفي هنا أن نشير أنه إلى أن أكثر آيات الذكر الحكيم استيفاء لقصة موسى هي من أول سورة القصص وحتى الآية الأربعين، وسنسرد بعضها هنا لتكون دليلاً لأحداث تهمنا في قصة موسى عليه السلام.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص].

وقد بدأت الرعاية الإلـٰهية بأن أوحى الله إلى أم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]، ويتابع السياق القرآني موسى عليه السلام: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص: ٨]، وتستمر العناية الإلـٰهية بأن ليَّن الله قلب امرأة فرعون إذ

(١) تربية الطفل في ضوء القرآن والسُّنَّة والأدب ص٧٥.

أشارت بعدم قتله وتركه يتربى بينهم، ثم بطلب مرضعة له، وتدخلت العناية الإلـٰهية هنا بأن حرم الله المراضع على موسى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ...﴾ [القصص: ١٢] فلم يصلح له سوى أمّه!! ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ...﴾ [القصص: ١٣]، ثم شبّ الفتى وجاءت الرسالة وكان منه ما كان بعد ذلك.

وحسبنا أن نتعلم من خالق الإنسان **أساسيات في تربية الطفل**:

الأولى: الحرص على حسن الإرضاع والتغذية، وقد أوكل الله هذا الأمر إلى أمه.

الثانية: توفير الحماية للناشئ، وقد كانت حماية أغرب من الخيال جعلت من المطلوب قتله سيداً في دار القاتل.

الثالثة: أن على المربي أن يفي بوعده للمتربي وأهله ليكون موضع ثقتهم، فإن كان المعلم يريد ـ مثلاً ـ أن يخرج بطلابه في رحلة لتحقيق أهداف تربوية متعددة، فليحرص أن يعود طلابه إلى بيوتهم في الوقت الذي حدده لأهله للعودة.

الرابعة: مؤازرة الناشئ وحل مشكلاته ليشعر أنه يتعامل مع محبّ له ساعٍ إلى خيره، وطبعاً لا نطلب من المربي هنا أن يعطي الناشئ عصا موسى وإنما أن يقدم له ما يستطيع لحل مشكلاته، وأن يحتسب الأجر في ذلك على الله.

الخامسة: إنشاء شيء من علاقة بين المربي (المتعلم) وأهل الناشئ حتى يصير المربي كواحد من أسرة الناشئ يطمئنون إليه ويثقون به، وهذا يقطع أشواطاً في طريق استجابة الناشئ وإقباله.

❐ رابعاً: الإحاطة الربانية لنبي الله محمد ﷺ في طفولته:

١ ـ ولادته ﷺ ومظهر الإحاطة الربانية فيها:

إن الإحاطة الربانية لهذا النبي الأمين بدأت منذ ولادته، فقد

وضعته أمه آمنة بنت وهب يتيماً، «فقد توفي أبوه عبد الله بن عبد المطلب وهو جنين في بطن أمه.. وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه، وكان ذلك أول بلاء يواجه الطفل الوليد.. وإن كان لا يدري شيئاً عن تلك المعاني إلا أن الله علم ذلك وأراد، وكان يؤهله لأمر عظيم»[١].

ولما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بالمولود، فأقبل مسروراً وسمَّاه بإلهام من الله: محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً من قبل عند العرب ولم يحمل هذا الاسم إلا أفراد قلائل[٢].

٢ ـ الإحاطة الربانية للرسول ﷺ وقت رضاعه:

إن أول مرضع تشرفت برضاعه ﷺ والدته الشريفة آمنة بنت وهب، ثم ثويبة مولاة[٣] أبي لهب، ثم أرضعته حليمة السعدية[٤] بنت أبي ذؤيب السعدية، وقد رأت في إرضاعه آيات وبركات أحاطت به وبمن حوله.

توجهت حليمة بنت الحارث إلى مكة في نسوة من بني سعد يبحثن عمن يرضع طفله عندهن كسباً للرزق، فعادت كل واحدة من مكة برضيع غير محمد ﷺ فلم يصل به مرضعة، لأنه يتيم، ثم قالت حليمة: قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلق إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. فقال: لا عليك أن تفعلي، فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيراً فذهبت فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد

---

(١) حياة محمد ﷺ، محمود شلبي ص١٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ص١٧.

(٣) هي: ثويبة مولاة أبي لهب، أرضعت النبي ﷺ واختلف في إسلامها، ماتت سنة (٧هـ). انظر: أسد الغابة ٧/ ٤٧، والإصابة ٤/ ٢٤٥١.

(٤) هي: حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب، واسمه: عبد الله بن الحارث بن شجنة هي التي أرضعت رسول الله ﷺ حتى أكملت رضاعه، ورأت له برهاناً وعلماً جليلاً.
انظر: الاستيعاب ٤/ ١٨١٣، والإصابة ٤/ ٢٤٧١.

غيره، فما هو إلا أن أخذته، فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى! وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لَحافلٌ، فحلب ما شرب، وشربت حتى روينا. فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليمة.. والله إني لأراك قد أخذت نَسَمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟ فلم يزل الله ﷻ يزيدنا خيراً، ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب، هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم والله إنها لهي. فقلت: والله إن لها لشأناً. حتى قدمت أرض بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا وما حوالينا أو حولنا أحد تبض[1] له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاتهم: ويحكم، انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تشرح، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لبناً، نحلب ما شئنا، فلم نزل نتعرَّف في الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان، وفصلته وكان يشب شباباً لا يشِبُّهُ الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً غليظاً شديداً فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بنيَّ عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به»[2].

---

(١) تبض الشاة: ترشح بالحليب.

(٢) انظر: الرواية بتفاصيلها في: السيرة النبوية، لابن هشام ١/ ١٨٣، والبداية والنهاية، لابن كثير ٢/ ٢٧٤، ودلائل النبوة للأصبهاني ١/ ١٥٤، وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

٣ ـ شق الصدر والحكمة الإلهية في ذلك:

بعد رجوع الرسول ﷺ إلى بني سعد بأشهر وقع حادث شق صدره، فعن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمه ـ أي: جمعه وضم بعضه إلى بعض ـ ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني: ظئره[1] ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ـ أي: متغير اللون ـ قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[2].

ومما سبق نستطيع أن نعرض أهم الفوائد الجليلة لما مر في طفولة نبي الله محمد ﷺ:

١ ـ أن الإحاطة الربانية لهذا النبي تمثلت في حمايته الجسدية وتحقيق الصحة الجسمية له بما هيئ له من مرضعات أدخل سبحانه في قلوبهن الحنان والعطف على ذلك الطفل اليتيم مع أن اليتيم لا يحظى بإقبال المرضعات عليه.

٢ ـ في قصته ﷺ بيان لمدة الرضاعة وأنها حولان كاملان في الأعم الأشهر: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وفيه اختيار الجو المناسب في مرحلة الطفولة كما كان من عادة العرب أن يتخذوا المراضع لمواليدهم من أهل البوادي لينشأ أولادهم أصح أجساماً وأصفى ذكاء، وكانوا يقولون: إن المربى في المدن يكون

---

(١) الظئر: مرضعة ولد غيرها، وتطلق على زوج المرضعة أيضاً.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء ١٦٢.

كليل الذهن، فاتر العزيمة[١].

٣ ـ أن الإحاطة الربانية لهذا النبي تجلَّت أيضاً فيما نزل من بركات على مرضعته حليمة السعدية، وذلك للترغيب في حضانته والاستمرار في رضاعته والتعلق به ومحبته، «وبهذا فازت حليمة السعدية بشرف لا يقدر قدره بإرضاعها رسول الله ﷺ وحبها له»[٢].

٤ ـ وقد تجسدت الإحاطة الربانية بهذا النبي ﷺ بتحقيق الحماية النفسية له عن طريق شق الصدر؛ فهو سبحانه «يعدُّه لتلقي الوحي عنه بهذه الحادثة، ونزع مغمز الشيطان منه، حتى لا يبقى محل ينزل به ليوسوس»[٣].

وقد امتن الله تعالى على نبيه بأن شرح صدره ونوَّره وجعله فسيحاً رحيباً واسعاً لشرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق، وتسهيل الخيرات والإقبال على الآخرة[٤]. في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح]، وقد كانت هذه الحادثة سبباً لهذه السلامة النفسية والخلقية وتهيئة لما هيأه الله وأعده لهذا النبي الكريم.

٤ ـ الإحاطة الربانية لنبي الله محمد ﷺ بتأمين من يكفله:

«عادت حليمة السعدية بالحبيب ﷺ لتكفله أمه آمنة ويرعاه جده عبد المطلب، وبهذا كانت آمنة الوالدة أول كافل للنبي ﷺ في صباه، وشاء الله تعالى أن تخرج آمنة بغلامها الزكي النقي الطاهر إلى يثرب «المدينة المنورة» ليزور أخواله من بني النجار، ولما وصلت الأبواء عائدة

(١) مع الأنبياء في القرآن الكريم ص٣٣٨.
(٢) هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، أبو بكر الجزائري ص٥٧.
(٣) المرجع السابق ص٥٧.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٤٥٨، وتفسير السعدي ص٩٢٩.

من المدينة إلى مكة أدركتها المنية فماتت بها، وحضن الحبيب محمداً الغلام اليافع مولاة أبيه أم أيمن بركة باركها الله ورضي عنها فوصلت به إلى مكة المكرمة، فسلمته إلى جده عبد المطلب فكفله فكان ثاني الكفلاء لرسول الله ﷺ.

ـ كفالة جده له:

«لقي محمد الغلام الطاهر من الحفاوة والتكريم، والإجلال والتقدير من جده الكفيل ما لا يقدر قدره ولا يعرف مداه»[(١)]، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع[(٢)]، ولما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين مات عبد المطلب، الجد الرحيم والكافل الكريم.

ـ كفالة عمه له:

نهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمَّه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل واحترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله ولم يتركه ولم يسلمه لقريب ولا لبعيد. حتى قبضه الله في السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية العظيمة[(٣)].

---

(١) هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب ص٥٧.
(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ١/ ١٨٨.
(٣) انظر: الرحيق المختوم، صفي الرحمٰن المباركفوري ص٧٥، وانظر: هذا الحبيب محمد ﷺ ص٥٧، ٥٨.

ومن خلال ما سبق يتبين أن الإحاطة الربانية لهذا النبي الكريم إنما كانت في تأمين مأوى يأوي إليه في حالة اليتم التي مر بها، إذ مات والده وهو حمل لم يولد بعد وماتت والدته وهو في السادسة من عمره، وقد امتن الله عليه بهذه النعمة التي أحاطت به.. قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى].

وفي ذلك إشارة إلى أهمية كفالة اليتيم وعظم أجر من يقوم بذلك من رعاية أبويه..، وقد ذكر هذا المعنى العظيم الرسول ﷺ في حديثه: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**.. وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما»[(١)].

والرسول ﷺ عاش يتيماً وعرف ما يقهر اليتيم وما يدخل الفرح والسرور على نفسه، وعرف ما يعوضه عن فقد أبويه، وإذا كان كذلك فقد أمره الله تعالى بعدم قهر اليتيم[(٢)].. قال تعالى له: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى].. «أي: كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم فلا تذله وتنهره، ولا تُسِئ معاملة اليتيم ولا تهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به وأكرمه»[(٣)]، «لأن مشاعر اليتيم ربما تبلغ من الرقة والحساسية أن تقهره الكلمات العابرة التي لا تثير أي إنسان آخر ولا تحرك فيه شيئاً، لذلك كان على كافل اليتيم أن يكون حريصاً على مشاعر الأيتام فلا يتسبب في إيذائها ويوصي أسرته بمثل ذلك»[(٤)].

❁ ❁ ❁

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٤٥.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٧، وتفسير السعدي ص٩٢٨.
(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٤٥، ٤٦.

المبحث الرابع منهج الأنبياء في تنشئة ذرياتهم وما فيه من فوائد جليلة للناشئة في ضوء القرآن الكريم

❐ تمهيد:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

إن الأبناء زينة الحياة الدنيا، ومصدر الفرحة لآبائهم، فهم قرة العين ونورها، وبهجة النفس وسعادتها، وهم قبل ذلك نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، ومع ذلك فليست الغاية فقط من الولد مجرد السعادة بهم وتلبية رغبات النفس برؤيتهم، بل إن هناك غاية سامية لا بد أن يتطلع إليها الآباء ويعملوا على تحقيقها هو العمل على إيجاد ولد صالح يحمل أسماءهم وأنسابهم ويدعو لهم في حياتهم وبعد مماتهم، وإعداده وفق مرضاة الله تعالى، وتهيئته لعبادة الله ﷻ ثم خدمة أمته الإسلامية وإعمار الأرض بالإيمان والدين الإسلامي، وبناءً على ذلك فقد أوجب الإسلام على الوالدين والمربين تنشئة الأبناء، التنشئة الصحيحة وتربيتهم التربية السوية القويمة وذلك عن طريق غرس معاني التقوى والفضيلة في نفوسهم وأرواحهم حتى تصبح تلك المعاني سجية لهم ومعلماً أصيلاً لشخصيتهم[1]، وذلك باتباع منهج تربوي سليم في هذه التربية، حتى تتحقق الثمرة المرجوة، قدوتهم في ذلك الأنبياء عليهم السلام، فقد كان لهم المنهج القويم في تنشئة ذرياتهم منهج ينير للآباء طريقهم في إعداد الناشئة

(١) انظر: تربية الطفل في الإسلام، أطوارها وآثارها ص٧ ـ ٣٧.

بمسلكهم، وقد اشتمل على عدة أساليب تربوية تعليمية كان لها السبق في إعداد ذرياتهم وإصلاحهم وتقويمهم عليهم السلام. **ومن هذه الأساليب:**

❐ أولاً: الدعاء:

إن للدعاء واللجوء إلى الله عز وجل مفعول عظيم في إصلاح الناشئة وفلاحهم واستقامتهم على الدين، ونهج التربية القرآنية المباركة، ودرب الهداية النبوية[١].

والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك، وأمور الخلق وأقدارهم بين يديه يصرفها كيف يشاء، فإذا كان هو سبحانه وتعالى صاحب الشأن كان من الضروري، بل ومن اللازم الطلب منه ودعاؤه والابتهال والالتجاء إليه رجاء صلاح الذرية واستقامتها، فإنه «ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل»[٢].

وقد كانت ألسنة المؤمنين تلهج إلى الله بالدعاء: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥]، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا «أكثر الناس دعاء والتجاء إلى الله، وطلباً منه إصلاح أولادهم، فقد سجل القرآن الكريم لبعضهم دعوات وتضرعات عظيمة»[٣] تبدأ قبل رزق الأهل بهم، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يطلب من ربه عز وجل عند هجرته من وطنه وقومه أولاداً صالحين يعينونه على الدعوة والطاعة ويؤنسونه في الغربة: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات].

وفي طلب نبي الله إبراهيم عليه السلام ولداً صالحاً حكمة هي أن يعينه

---

(١) انظر: الطفل في ضوء القرآن والسُّنَّة والأدب ص٥٥.
(٢) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود الفراء البغوي ٣/ ٣٧٩.
(٣) مسؤولية الأب المسلم ص٧٧.

على الدعوة والطاعة ويؤنسه في الغربة ينفع الله به في حياته وبعد مماته وليكون مطيعاً عوضاً عن قومه وعشيرته[١]. وقال الشيخ ابن عاشور[٢]: «ووصفه بأنه من الصالحين لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً، فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء ومن صلاحهم برهم لوالديهم»[٣].

وهكذا كان نبي الله تعالى زكريا عليه السلام قد سأل الله تعالى الذرية الطيبة على كبر سنه ووجود الزوج العاقر.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران].

إنها دعوة لغرض واحد ومبتغى واحد هو الفلاح والصلاح لهذا الابن، ولم يقتصر الدعاء للأبناء قبل وجودهم بل امتد ذلك إلى ما بعد ولادتهم ومجيئهم لهذه الحياة الدنيا.

وإذا كان قد حصل دعاء الأنبياء عليهم السلام ربهم برزقهم ذرية صالحة سواء قبل أو بعد مجيئهم، فإن دعاءهم مستمر لتحقيق سلامة العقيدة والقيام بركائزها وغرسها في نفوس أبنائهم وذرياتهم، فهذا إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه عز وجل أن يجعل من ذريته أمة مسلمة مستسلمة منقادة مطيعة له سبحانه وتعالى، وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال الشيخ السعدي[٤] رحمه الله تعالى في تفسيره: «ودعوا

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ناصر الدين البيضاوي ٢/٢٩٦، وروح المعاني ٢٣/١٨٦، وتفسير ابن كثير ٤/١٥، وانظر: فتح القدير ٤/٥٠٥، وتفسير السعدي ص٧٠٦.

(٢) سبقت الترجمة له. (٣) التحرير والتنوير ٢٣/١٤٨.

(٤) هو: عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ولد عام (١٣٠٧هـ)، نشأ يتيماً فحفظ القرآن وطلب العلم، كان عالماً جليلاً وقاضياً مسدداً، له مؤلفات كثيرة من أشهرها: «تيسير الكريم الرحمٰن»، توفي سنة (١٣٧٦هـ). انظر: علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبد الله البسَّام ٢/٤٢٢.

لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح»[١].

وقال الشيخ ابن عاشور[٢] رحمه الله تعالى في تفسيره: «وهذا دعاء ببقاء دينهما في ذريتهما»[٣].

وأما عن تخصيص إبراهيم عليه السلام ذريته بهذا الدعاء فتحدث عنه العلامة الخازن[٤] رحمه الله تعالى بقوله: «قلت: «لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة»[٥]. . قال الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

ومن هنا يتوجب على كل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه، وخاصة إذا كان هذا الدعاء مصدراً لثبات الإنسان على إسلامه وخروجاً من الشرك والظلام إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، وتحقيقاً للطمأنينة والاستقرار في ظل هذا الدين[٦]، وتتأكد هذه الدعوات في وقتنا الحاضر لا سيما وقد غزت ساحته الفتن وأحاطت بالناشئة. وهنا يقع العبء الأكبر على الوالدين في الوقاية منها بشتى الأساليب، أولها التضرع لله تعالى في أن يجنب بيتهم وأن يقيهم شرها والانسياق وراءها والانغماس فيها.

ولتحقيق الإسلام لا بد من تحقيق أركانه ومنها إقامة الصلاة، فقد كان إبراهيم عليه السلام شديد الاهتمام بأن تكون ذريته من مقيمي الصلاة،

---

(١) تفسير السعدي ص٦٦.
(٢) سبقت الترجمة له.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٧٢٠.
(٤) هو: علي بن محمد بن ابراهيم بن عمر بن خليل البغدادي عالم بالتفسير، والحديث، من فقهاء الشافعية، سكن دمشق وكان خازن الكتب بالمدرسة السماطية فيها، واشتهر بالخازن بسبب ذلك، له مؤلفات عديدة منها: «لباب التأويل في معاني التنزيل» في التفسير المعروف بتفسير الخازن، و«عدة الإفهام في شرح عمدة الأحكام»، توفي في آخر شهر رجب سنة (٦٤١هـ) بحلب.
انظر: طبقات المفسرين للداودي ص٢٩٢، والأعلام ٥/ ٥.
(٥) تفسير الخازن ١/ ٩١.
(٦) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٧، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢١٠.

ولهذا اختار البيئة الصالحة للتنشئة السليمة: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ودعاء إبراهيم عليه السلام أيضاً: قال الرازي[١] رحمه الله في تفسيره: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، واللام متعلقة بـ(أسكنت)؛ أي: أسكنت قوماً من ذريتي وهم إسماعيل عليه السلام وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة»[٢].

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم].

وقال ابن كثير[٣] رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾؛ أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها[٤].

أو لم يتذكر أولئك أن نبيهم الكريم أمر المسلمين بأمر أولادهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، وضربهم عليها وهم أبناء عشر سنين، كما ذكر ذلك الرسول ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين**»[٥].

وعلى ما سبق فالدعاء:

● يغير ـ بفضل الله ـ سلوك الأولاد وتصرفاتهم غير المرغوب فيها إلى ما هو أحسن وأفضل.

---

(١) هو: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل، الملقب بفخر الدين أبو عبد الله المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي، كان سلطان المتكلمين في زمانه وأحد الأئمة في العلوم الشرعية. له مصنفات مشهورة منها: كتابه في التفسير «مفاتيح الغيب»، و«المحصول» في أصول الفقه، كانت مدة حياته بين سنة ٤٤، وقيل: ٤٣ وخمسمائة، وسنة ست وستمائة. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/٢٤٨، وطبقات المفسرين، للداودي ص٤٤٤.

(٢) التفسير الكبير ١٩/١٠٨.

(٣) سبقت الترجمة له.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٨.

(٥) سبق تخريجه.

• يرتبط به اتخاذ الأساليب المتممة له لتحقيق صلاح الأبناء واستقامتهم.

فعلى المربي أن يتعوَّد الدعاء لابنه، «وأن يكون الدعاء له بالخير والصلاح، فإن كان صالحاً دعا له بالثبات والمزيد، وإن كان غير ذلك لا قدر الله دعا له بالهداية والتسديد، وقد جاء النهي عن الدعاء على الأبناء في كثير من الأحاديث منها[١] قوله ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم ولا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم**»[٢]، وقوله عليه السلام: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**»[٣].

ولكن يدعو له بالهداية ويتذكر دائماً أن الأنبياء دعوا لذريتهم بخير وهم قدوة للبشرية فليقتد بهم، وأن يكون على يقين بأن دعاءه إما أن يكون سبباً في إصلاح ابنه أو سبباً لفساده.

❐ ثانياً: المشورة:

سلك الأنبياء عليهم السلام في تعليمهم ذرياتهم العديد من الأساليب للوصول بهم إلى مدارج الكمال الخلقي والديني، **ومن هذه الأساليب ما يلي:**

ـ المشورة:

إن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، أطوارها وآثارها ص٢١٧.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب حديث جابر الطويل، رقم الحديث (٣٠٠٩).
(٣) أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الوالدين، رقم الحديث (١٩٠٥). قال الألباني: حديث حسن في سنن الترمذي ص٤٣٦.

منها: أن المشاورة من العبادات التي يتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً للخواطر وإزالة ما يصير في القلوب عند الحوادث، فالمربي إذا جمع أهله وأبناءه وشاورهم في حادثة من الحوادث فإن نفوسهم تطمئن إليه وتحبه لأنهم علموا بأنه ليس مستبداً منفرداً برأيه وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية فيبذلون جهدهم في تبع أمره وطاعته.

ومنها: أن في الاستشارة إنارة للفكر وإعمالاً للعقل للوصول إلى الوجه المطلوب والأكثر كمالاً.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الوصول إلى الرأي الصواب لأن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله وإن أخطأ لم يتم له مطلوب فليس بملوم فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلاً وأعزهم علماً وأفضلهم رأياً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فكيف بغيره[(١)].

والمتأمل في سيرة خليل الرحمٰن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يجد ذلك الأسلوب في تربيته لابنه إسماعيل عليه السلام، ويدل على ذلك أنه لما أمر بذبح ابنه بدأ بمشاورته بدل المبادرة إلى إصدار الأمر إليه، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

والمشورة هنا لغرض آخر أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام الوصول إليه وتحقيقه وهو أنه كما قال الزمخشري[(٢)] رحمه الله: «لم يشاوره ليرجع إلى

---

(١) انظر: تفسير السعدي ص١٥٤.

(٢) هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، العلامة أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، النحوي اللغوي، المعتزلي ـ المفسر، يلقب جار الله؛ لأنه جاور بمكة زماناً، ولد في رجب سنة (٤٦٧هـ)، وللزمخشري مصنفات عديدة منها: «الكشاف» في التفسير، و«الفائق» في غريب الحديث، و«أساس البلاغة» مات سنة (٥٣٨هـ).
انظر: طبقات المفسرين، للسيوطي ص١٢٠ وطبقات المفسرين، للداودي ص٥١٠.

رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلَّم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله.. وليكون سنة في المشاورة»[(١)].

وقال ابن الجوزي[(٢)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن أراد أن ينظر ما عنده من الرأي»[(٣)].

إذن فالمشورة ومشاورة الأبناء فيما يتعلق بهم أمر ضروري لسلامة الناشئة نفسياً وخلقياً، هي الطريق الصحيح لتكوين شخصية تتميز بالثقة بالنفس وإبداء الرأي لمعرفة ما يدور بداخلهم من أفكار، ولتثبيت ما هم عليه من أفكار وآراء صحيحة والقدوة في ذلك سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❐ ثالثاً: الحوار:

الحوار أسلوب راق في التربية له فوائد كثيرة منها:

١ ـ الاستفادة من سماع أحاديث فيها آراء وحجج يحاول أصحابها إثبات صوابها.

---

(١) الكشاف، للزمخشري ٣/ ٣٤٨، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٩٢، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٦، والتحرير والتنوير ١١/ ١٦١، والدر المنثور، للسيوطي ٥/ ٢٨٢.

(٢) هو: الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد البكري البغدادي عُرف جدهم بالجوزي لجوزة كانت في دارهم لم يكن بواسط سواها. كان واعظاً، عالماً في التفسير والحديث والسير، من مؤلفاته: «زاد المسير في علم التفسير»، و«المغني»، في علوم القرآن، وغيرهما. توفي في رمضان سنة (٥٩٧هـ).
انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٢٨، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٠.

(٣) زاد المسير ٧/ ٧٥.